# نـكسة فى دار العلوم !

للأستاذ الطاهر أحمد مكى

كان المستشرقون أول من عنى بالبحث فى اللغـة العربيـة وأخواتها من اللغات السامية فى مطلع العصر الحديث ، دراسـة منتجة مثمرة ، تعتمد على العقل والفـكر والاستنباط ، وتتخذ مادة درسها من الـكتب والآثار والمقارنة ، ومن ثم بدأ علماؤهم يجوبون الأقطار العربية وما اتصل بهـا قديما من أمم ، وذهب كثيرون منهم شهداء العلم ، اغتالهم الجهال ، أو أضناهم العمل ، أو أفناهم المرض ، أو فتـكت بهم الأوبئة !

وقد انتهت هذه البحوث إلى أن اللغات السامية نشأت من أصل واحد [1] ، ثم تنوعت بفعل البيئة أو تطورت بعامل الزمن فنشأ مابينها من تفاوت لايمس أصولها ، ولا يقطع مابينها من رحم ، وأن على الباحث فى واحدة منها ، أن يستهدى أخواتها الأخريات

فلمـا تقدمت الحياة العقلية فى مصر ، رأى الذين يهمهم أمر الثقافة العربية ، أن مجال التقدم والابتكار فيها ، والـكشف عن كنوزها ، وتبيان غامضها ، مازال ضيقا ، وأن الشرق فى تفهمه لآثاره عالة على الغرب ، يتابع خطواته ، ويتلمس طرائقه ، ويتلقى ما انتهى إليه من نتائج قضايا مسلمة !

وكان واضحا أن نقطة الضعف فى التفـكير العربى المعاصر ، أن الذين يتصدون للبحث فى شتى أنواع المعارف القديمة ، يجهلون اللغة العربية ولا يلمون بدقائقها ، مما ينتج عنه سوء فهم لتلك الثقافات ، أو خطأ فى الإلمام بقضاياها ، وكان نخجلا أن يدرس التاريخ الإسلامى أو يؤلف فيه من لايعرف أصول اللغة وتاريخها ومادته جلها نصوص لغوية وأدبية ، أو يتصدى للفلسفة الإسلامية شارحا أو مؤرخا ، وهو يجهل التطور الذى أصاب اللغة ، فجعل للفظ معناه حين يكون فى القاموس مغايرا لمعناه إذا ورد فى أساليب الفلاسفة ، فـكان الخلط والاضطراب والتعثر ، ملحوظا لـكل من يطالع النتاج المعاصر فى الفلسفة أو التاريخ أو الشريعة ، وغيرها من التراث العربى القديم ، إذا استثنينا القليل !

ولم يكن هذا الخلط وقفا على الثقافة التى تبعد عن اللغة قليلا أو كثيرا ، بل امتد أثره حتى إلى اللغة نفسها ، ذلك أن تقدم الإنسانية وسع من إمكانيات الدارسين والمؤلفين ، وانتشار الطباعة والتخصص جعل مهمتهم سهلة لينة ، وتقدم منهاج البحث العلمى والاستعانة بالمقارنة جعل من الممكن ملء الفجوات التى تبدو بين معالم الثقافة القديمة ، والاهتداء إلى الأصول المجهولة ، والتى كانت تعترض القدماء ، فيعللونها بالفرض ، أو يصلونها بالخيال ، أو ينحرفون بها إلى الخرافة !

ومسايرة لهذا المنطق ، بدا أن دارس العربية لـكى يستفيد منها ويتبين حقائقها ، وينير قضاياها ، عليه أن يـكون عارفا ما استطاع بأخواتها من الفصائل السامية ، كالعبرية والسريانية واليمنية القديمة والحبشية ، وما جاورها من لغات أخرى ، كالفارسية والأورية والتركية ، فى حدود القدرة والتخصص .

روعى هذا النهج عندما أنشئت كلية الآداب بالجامعة المصرية القديمة ، ودعا إليه الدكتور طه حسين دار العلوم العليا فى حرارة وقوة عام ١٩٣٥ ، عارضا عليها أن تضم إلى الجامعة ، على أن تحتفظ باسمها التاريخى المجيد ، لتـكون معهدا للغة العربية واللغات الشرقية ، ولم يقف بدعوته عنـد هذا الحد ، بل اقترح أن تبدأ العناية بهذه اللغات من التعليم الثانوى ، لمن يريدون أن يتخصصوا فيها ، لـكى تـكون دراستهم منتجة مثمرة .

ولم يتح لدعوة الدكتور طه حسين أن تجد سميعا إذ ذاك ، فطواها على مضض وإن لم ييأس منها ، ومضى يهيئ لها الأذهان حتى اختمرت ، وأذن لها أن تؤتى أكلها عام ١٩٤٦ ، حين ضمت دار العلوم إلى جامعة القاهرة ، لتنتفع بالنهج الجامعى وحريته ، ولتأخذ فى ركب الحضارة وجهة جديدة ، توائم التطور الثقافى الذى انتهى إليه العالم ومصر عقب الحرب العالمية الأخيرة .

أجل ، كانت دار العلوم المدرسة قد أدت رسالتها فى تنقية الفصحى من أوشاب العامية ، وتحرير الألسنة من اللـكنة الأعجمية ، وفى إعداد المدرس الصالح لأدائها ، والـكتاب الطيب الملائم للقراءة ، وفى تطوير اللغة لتصبح مرآة ناصعة ، تنعكس

(١) توصل إلى هذا الرأى العلامة ابن حزم الأندلسى ، فقال فى كتابه « الإحكام فى أصول الأحكام » : « إن الذى وقفنا عليه وعلمناه يقينا أن السريانية والعبرية والعربية التى هى لغة مضر وربيعة لالغة حمير ، لغة واحدة تبدلت بتبدل مسالك أهلها » ثم تابع كلامه فى تعليل رائع ، مما يعد معه بحق واضع علم « فقه اللغة » الحديث ، ثم تلاه بعد ذلك ، علماء اليهود الذين ورثوا الحضارة العربية فى الأندلس ، ولـكن الظلام الذى عم إسبانيا عقب إجلاء العرب عنها أوقف تقدم هذه البحوث ، حتى بعثت فى منتصف القرن التاسع عشر على يد المستشرقين .

عليها مظاهر الرقى المتعددة ، وتتسع ألفاظها للتعبير عن أسمى المشاعر والأفكار . ... وبقى الشق الآخر من الرسالة ، وهو البحث والتقصى والعكوف على القديم لدرسه ونقده وتمييزه ، وتتبع مساربه ومجاريه ، بعد أن هيئت الوسائل وأكملت الأداة !

ومن ثم شفع ضمها إلى الجامعة إفساح المجال فيها للدراسات السامية والشرقية على الخيار بين واحدة منهما ، وأحس الطلاب أن شيئا جديدا من الثقافة بدأ يأخذ طريقه إلى أذهانهم ، ليساعدهم فى تفهم كثير من المشكلات ، كانت تبدو أمامهم معقدة غير واضحة ، وكانت هذه العلوم أداة ليصبح عندنا نحو مقارن يرفع الستر عن قصة النحو العربى ، متى نشأت ، وكيف ، وعلى يد من؟ ... ولأى المؤثرات تعرضت . وقل الأمر نفسه عن البلاغة وفقه اللغة ، وعن الأدب أيضا .

ولكن البلاغة والنحو والصرف وفقه اللغة والأدب ، ليست هى كل التراث الإسلامى ، فهناك الفلسفة ، وهناك التاريخ ، وهناك الشريعة ، وما يتصل بهذه العلوم أو يتفرع عنها ، وهى علوم تحور التبريز فيها أن يكون الدارس لها عارفا باللغة العربية أولا . وسد هذا الفراغ وتهيئة المجال أمام الراغبين فى هذا النوع من الثقافة الإسلامية ، رؤى أن تتولاه دار العلوم تبعا ، لتحرير بحثه ومادته من سلطان المستشرقين بعد أن ظل وقفا عليهم ، مع الانتفاع بنهجهم ومذهبهم فى التقصيد والاستنتاج ، على أن يتخصص الطلاب فى واحدة منهما ؛ لتكون إفادتهم كاملة ، فكانت شعب التاريخ والفلسفة والشريعة ، بجوار الثقافة العربية الأخرى . ولتثبيت هذا المعنى فى أذهان الطلاب وتقويته ، وليأخذ صبغته القانونية ، رؤى أن تكون براءتهم إذا تخرجوا « الليسانس فى اللغة العربية وآدابها والدراسات الإسلامية » .

* * *

ومضى الركب فى طريقه ...

ثم أذيع أن عميد كلية دار العلوم الأستاذ إبراهيم اللبان ، دعا مجلس جامعة القاهرة ، إلى تدعيم « معهد اللغات الشرقية » التابع لكلية الآداب ، بجعله مستقلا على أن يكون للدراسات الشرقية كلها ، أدبا ولغة ، تاريخا وحضارة ، واستبشر الطلاب والدارسون من وراء دعوته خيرا حين تلقفوها من أفواه الصحف ولكن ... سرعان ما أعجلتهم الحقيقة ، فأخبتت فيهم الأمل ، وأغاضت البشرى ، ذلك أن العميد سبب دعوته ، بأن مفتشى اللغة العربية فى وزارة المعارف ، يشكون ضعف خريجى دار العلوم الكلية فى النحو والصرف ، وعزا ذلك إلى مزاحمة اللغات السامية والشرقية فدعا إلى إلغائهما ، بل وارتأى الحاجة إلى دراسة التاريخ والفلسفة أيضا ففكر فى استبعادهما !

لن أرفع عن زملائى وأندادى تهمة الضعف ، فنحن ، مازلنا طلابا رغم التخرج . ولن نزعم لأنفسنا العلم أبدا ، فنحن فى أول الطريق ومن سار على الدرب وصل . ولن نقول للعميد إن التدريس لتلاميذ الابتدائى والثانوى لايحتاج إلى مزيد علم ، ولا يصلح مقياسا لقوة أو ضعف ، وإن المسائل موضع الخلاف لاتعدو « همزة الوصل والقطع » والإعجام ، واختلاف النظرة إلى الكلمة الواحدة ، حين تكون العامية خفيفة سهلة ، ومثيلتها العربية ثقيلة موحشة ... لن نقول له إن المدارس اليوم تموج بأناس حظهم من الثقافة متواضع ، وجهدهم فى التحصيل ضعيف ، ونظرتهم إلى التعليم مادية ، وإيمانهم بالرسالة معدوم ، وإن خريجى دار العلوم وسط هذه الأخلاط ، قلة لايسمع لها صوت ، ومواهب لايترك لها مجال !

لن نقول له شيئا من ذلك كله ، لأن رسالة دار العلوم الجامعية يأتى فيها التدريس تبعا لا أصالة كما يقول الأصوليون ، وإنما رسالتها أن تنير للطالب الطريق ... طريق الكشف عن مجاهل الحضارة والثقافة ، ثم تقول له سر على بركة الله ، ليكتشف ويتأمل ويقين ، مشكورا أخطأ أم أصاب ، ونحن جد سعداء ، لأن دار العلوم الجامعية أمسكتنا أكثر من مشعل . وأنارت أمام عقولنا أكثر من طريق !

لقد جارينا العميد فيما ارتآه من أننا ضعفاء فى النحو ، لا تقريراً للواقع بل إسهاما فى حل المشكلة ، فليسمح لنا أن نخالفه أشد المخالفة ، فى أن مبعث ذلك هو اللغات السامية أو الشرقية أو التاريخ أو الشريعة ، أو تزاحم مختلف المواد ، ذلك أن واحدا من هذه العلوم ، ليس جديدا فى تقريره ، وإن تطور فى منهاجه ، وأن محاضرات اللغة فى نحوها وأدبها وفقهها لم تنزل عن المستوى الذى أنشئت عليه منذ أن كانت دار العلوم ، بل إن منها ما استحدث كالأدب المقارن ، أو خص بعناية فى الوقت والدرس والمنهج كفقه اللغة ، وإن الذين يطاولنا بهم فى النحو من أساتذتنا فى الدار وخارجها ، كان نصيبهم من الدراسات السامية مضاعفا ، فدرسوا العبرية والسريانية ، على حين يدرس طلاب

اليوم الأولى وحدها ، ولم يغنهم ذلك ، إن لم يدفعهم ، إلى أن يبرزوا فى الميدان ، وأن يسدوا إلى الفصحى خدمات جلى !

لقد توسعت دار العلوم فى دراسة هذه المواد ، ولكن هذا التوسع لم يكن على حساب اللغة أو قواعدها ، وإنما كان على حساب علوم دست على الدوار لدوافع استعمارية ، كان على حساب الطبيعة والكيمياء والهيئة والصحة والرسم والحساب والجبر والهندسة والجغرافيا ، والأشغال اليدوية ( ! ! ) وهى علوم كان مؤسفا ومخجلا أن تدرس فى معهد عال يعد المتخصصين فى اللغة العربية ، وأن يشغل بها الطلاب ، على حين أن مكانها فى المرحلتين الابتدائية والثانوية ! . ويستطيع العميد أن يراجع برامج دار العلوم منذ عام ١٨٧٣ حتى اليوم ، فلن يجد حيفا من اللغة أو علما عدا عليها

حتى ولو جاريناه فى دعوته ونظرته لدار العلوم ، وتفهمه لرسالتها على أنها تزويد المدارس بعدد صالح من المعلمين « فإن معلم اللغة العربية محتاج أشد الحاجة إلى أن يكون قادرا على أن يفهم الصلة بين مادة اللغة العربية وأصولها السامية الأولى ، فيجب أن يدرس اللغات السامية درسا حسنا ، وأن يتقن بعض اللغات الأجنبية الحديثة ، وبعض اللغات الشرقية الإسلامية الحية ، فى شئ من التنويع والتخيير بين هذه المواد »[٢] ، « فدراسة اللغات السامية دراسة قران ، أصبحت الآن ضرورية لكل من يريد أن يلم بتاريخ اللغة العربية إلماما يشمل نشأتها وعوامل انتشارها ، واللغات التى أثرت فيها وتأثرت بها ، ولكل من يريد أن يدرس فقه اللغة عامة ، وفقه اللغة العربية بوجه خاص ، دراسة علمية دقيقة . إن طالب دار العلوم فى حاجة إلى التزود بمعلومات كافية عن بعض اللغات السامية التى لها علاقة وثيقة باللغة العربية ، أسوة بما هو متبع فى أوربا ، حيث تدرس اللغتان الإغريقية واللاتينية لاتصال اللغات الأوربية الحديثة بهما »[٣]

* * *

لقد استقبلت دار العلوم حياتها الجامعية من سبع سنوات مزهوة بماضيها ، مؤملة فى غدها ، مقدرة لرسالتها ، وكان اندماجها فى الحياة الجامعية موضع فخار وإجلال ، وتطورها السريع موضع تقدير وإكبار ، رعت الأفذاذ من أبنائها فاستردتهم معيدين ، وأرسلت بهم وراء البحار دارسين وباحثين ، وهيأت لهم من حياتهم العلمية رشدا ...

ثم ، ماذا أقول ! ... إن الحسرات لترعى قلبى ، وإن الحزن ليغشى جوانحى ، ويكاد الألم يقتلع من عقلى ذكريات علمية عزيزة عليه ، لأن الكلية التى شهدتها زاهرة ناضرة ، واختزنت لها فى حنايا نفسى أروع الذكريات وأنبلها ، نكصت على عقبيها ، فتراجعت القهقرى ، لتنطوى على نفسها بعيدا عن الحياة والناس ، وأخشى أن يفوتها الركب ...

لم يعد للنابهين من أبنائها فيها نصيب ، فتوقفت عن تعيين المعيدين ، وكل جريرتهم أنهم صغار السن شباب ، وتوقفت عن إرسال البعثات ، لأن سياسة « ليس فى الإمكان أحسن مما كان » عادت تطل برأسها من جديد !

ثم أسلمت مكتبتها ، مكتبة أعرق كلية تدرس العربية فى الشرق — والجامعة مكتبة — وبها كثير من النفائس والذخائر ، إلى أمين كل مؤهلاته أنه يحمل الشهادة الابتدائية ، وفى بقية الكليات الأخرى ، تنال المكتبة أعظم رعاية وأبلغ اهتمام ، ويشترط فى أمينها من المؤهلات مايشترط فى هيئة التدريس

* * *

وبعد ... إنى أناشد الذين فى دار العلوم — وأنا أعرف من هم علما وفضلا — ضمائرهم وعقولهم ، أناشد فيهم تاريخ دار العلوم وحاضرها وغدها ... إذا لم تستطيعوا السير إلى الأمام فلا ترتدوا لا تنقصوا مواد الدراسة ، بل زيدوها إذا أحببتم ، أنشئوا معهد الدراسات الشرقية ، لكن لا تمسوا هذه الدراسة فى دار العلوم ، خرجوا شبانا يدرسون ويفهمون ، أصحاب ثقافة متنوعة تسمو بهم عن المحلية ، وتحلق بهم فى أجواء عالية فسيحة ، أيان توجهوهم يأتوا بخير كثير ...

إنى أناشدكم بكل مقدساتها ، ألا تعودوا بها « مصنعا » للمدرسين من جديد !

الطاهر أحمد مكى

---

( ٢ ) دكتور طه حسين . مستقبل الثقافة فى مصر ص ٣٨٨ طبعة سنة ١٩٣٨

( ٣ ) من تقرير للأستاذ حامد عبد القادر أستاذ اللغات السامية والشرقية وفقه اللغة سابقا بدار العلوم ، ومدير اللغة العربية بوزارة المعارف الآن ، والدكتور إبراهيم أنيس أستاذ اللغات السامية بكلية دار العلوم الآن وقد كتباه فى ٤ / ٦ / ١٩٤٦